مقدمة الطبعة الثانية

عشر سنوات مضت منذ أن ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى - عشر سنوات حاسمة فى عمر العالم ، وفى عمر الوطن ، وفى عمر الفرد . فى هذه السنوات العشر ازداد العالم تباعداً عن تفكير نيتشه وعن كثير مما يمثله تفكير نيتشه ، وازداد وقع القضايا التى أثارها هذا الفيلسوف المنعزل غرابة على الآذان . وعلى الرغم من أن العالم كان يشهد من آن لآخر فترات انتعشت فيها فلسفة نيتشه بعد موته ، فإن الشواهد كلها تدل على أن من الصعب أن تصل تعاليمه مرة أخرى إلى مثل هذا الازدهار ، أو أن تثير موجة أخرى من موجات الحماسة الجارفة التى مرّ بها العالم خلال النصف الأول من القرن العشرين . وأكاد أقول إن نيتشه ، الذى ظل « مفكراً حيًّا » حتى أواسط هذا القرن ، يتحول الآن تدريجاً ، وبحركة بطيئة قد لا يشعر بها الكثيرون ، إلى « فيلسوف تاريخى » .

على أن هذا التحول فى موقع نيتشه من العالم المعاصر ، أو فى موقف العالم المعاصر منه ، لا يدفعنى إلى أن أعيد النظر فى شىء مما قلته عن نيتشه من قبل . فقد ألّفت هذا الكتاب وفى ذهنى صورة محددة لنيتشه ، عرضت معالمها العامة فى مقدمة الطبعة الأولى ، وهى صورة مازلت أعتقد اليوم أنها أقرب إلى الصواب . ولو كنت قد نشرت هذا الكتاب لأول مرة فى أيامنا هذه ، لكان من الجائز أن تجىء بعض فصوله أوسع نطاقاً وأكثر إسهاباً مما هى عليه . ولكنى ما كنت لأغير شيئاً من الأفكار الرئيسية الموجودة فيه ، أو من الموقف العام الذى اتخذته من هذا المفكر . ومن هنا آثرت أن يعاد طبع الكتاب على ما هو عليه . فيما عدا بعض التصويبات المطبعية واللغوية الشكلية .

* * *

ولكن ، ماذا عسى أن تكون مبررات القول بأن العالم يزداد تباعداً عن نيتشه يوماً بعد يوم ، وأن كل عام يمر يزيد من غرابة وقع كلماته على الآذان ؟

إن نيتشه كان قبل كل شيء مفكراً حضارياً ، ورسالته فى الحياة لم تكن رسالة فيلسوف صاحب مذهب نظرى ، وإنما كانت أساساً رسالة ناقد للحضارة التى يعيشها . وعلى الرغم من كل ما امتازت به نظرته إلى الحضارة الأوربية المعاصرة له من عمق ومن قدرة على النفاذ إلى أبعد الأغوار ، فإنه كان ابناً لحضارة لم تكتمل . فنيتشه نتاج أصيل للقرن التاسع عشر ، وما كان فى وسعه ، وهو يعيش فى ذلك القرن ، أن يصدر حكماً دقيقاً شاملا على الحضارة الغربية المعاصرة له ، لسبب واضح هو أن تلك الحضارة كانت تمر بفترة انتقال إلى عهد جديد لم تكن عناصره قد اكتملت بعد ، بل لم يكن بعضها قد ظهرت بوادره أصلا .

فى القرن التاسع عشر كان النمط الفكرى الشائع — فى ميدان الفلسفة الحضارية — هو النمط القلق المضطرب ، ولم يكن من المستغرب على الإطلاق أن تظهر نماذج شاذة لمفكرين يدعون إلى الفردية المطلقة . أو إلى الفوضوية ، أو إلى القومية الضيقة الأفق ، إذ أن اضطراب التفكير وعدم استقراره كان أمراً طبيعياً فى عصر انتقل فيه العالم الغربى من حياة قديمة إلى حياة جديدة ، دون أن يدرك المعالم الكاملة لتلك الحياة الجديدة أو يستكشف أبعادها الحقيقية أو يهتدى بوضوح إلى طريقه خلالها . فى ذلك القرن اختفت طبقات كاملة — طبقات النبلاء والأشراف والإقطاعيين الوراثيين — وظهرت طبقات جديدة لم يكن لها من قبل أى صوت مسموع — طبقات العمال وأصحاب الأعمال — وكان هذا التغيير الأساسى مقترناً فى البداية باختفاء بعض المعالم الثقافية التى كان يرعاها النبلاء ، وظهور معالم أخرى أكثر ملاءمة للطبقات الناشئة التى لا تتميز بعراقة الأصل أو بامتداد جذورها فى الماضى البعيد . وكان من الواضح أن تحولا ضخماً يطرأ بالفعل على حياة الإنسان الأوربى ، ولكنه بدا للكثيرين عندئذ تحولا إلى الأسوأ ، وخيل إليهم أن التاريخ يتدهور وأن القيم تنهار ، وأن العصر الجديد لن يكون إلا عصر التفاهة والسطحية والابتذال . كان ذلك إذن « عصر تجربة » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، ولم يكن من الممكن أن تثمر

البذور التى غرست فى القرن التاسع عشر إلا فى القرن العشرين ، بل إن بعضها لم يؤت ثماره كاملة إلى اليوم . وعلى أية حال فإن الرؤية قد أصبحت الآن واضحة ، ومعالم الطريق قد استبانت ، والتجارب قد تباورت ، وبدأ يتحقق ما كان فى القرن الماضى مجرد « مشروع » مبهم .

ولقد كان نيتشه يفخر دائماً بأنه يتحدث للمستقبل ، وبأن أفكاره لن تفهم إلا بعد مائة عام . وقد تكون بعض اتجاهاته الفكرية سابقة لأوانها بالفعل ، غير أن موقفه العقلى العام ، ونظرته إلى الحضارة الغربية بوجه خاص ، تبدو لنا اليوم متخلفة عن ركب العصر إلى حد بعيد . إن الإنسان الأرقى ، أو « ما فوق الإنسان » ، كما تصوره نيتشه ، لن يظهر بوصفه امتداداً وارتقاء للفرد الأرستقراطى المنعزل ، بل إن الشواهد كلها تدل على أنه سيظهر من « المجموع » — من أولئك الذين كان نيتشه يعدهم عبيداً لا سادة . والصراع الثقافى والأخلاقى والفنى فى عصرنا الحالى لا يحمل شيئاً من آثار « تنبؤات » نيتشه ، وإنما يسلك طرقاً لم يكن فى مقدوره أن يتنبأ بها على الإطلاق .

ومع كل ذلك ، فإن نيتشه سيظل دائماً مفكراً يقرأ الناس له ويقرأون عنه بشغف واهتمام . ومهما تباعد تيار العصر عن أفكاره الأصلية ، فسيظل الناس يجدون متعة فى كتابات ذلك المفكر الذى لا يستطيع أحد أن ينكر إخلاصه ، حتى للقضايا الخاسرة ، والذى نادى الإنسان بأسلوب غنائى رائع ، وتغلغلت بصيرته النفاذة فى أعماق النفس البشرية ، وخاطبنا بصراحة لا تخلو من القسوة ، وعالج كثيراً من أمراضنا التقليدية المزمنة بطريقة الصدمات العنيفة المفاجئة . إن نيتشه يمثل نمطاً فريداً من المفكرين والكتاب ، نجد متعة فى الرجوع إليه من آن لآخر ، وقد نجد فى بعض الأحيان صعوبة فى الامتناع عن الانسياق وراءه والاستسلام لتياره الجارف ، ولكن من علامات الاتزان العقلى أن نلتزم جانب الحذر إزاءه ، إذ أنه كان — إلى حد بعيد — مراهقاً فى عنفه ورومانسيته ، ولابد للعقل الناضج أن يتجاوز دور المراهقة الفكرية .

فؤاد زكريا

القاهرة فى ١٥ مارس ١٩٦٦

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الأولى

لى مع تفكير نيتشه Nietzsche قصة ما كنت أرويها للقارئ إلا لعلمى أنها قصة الكثيرين معه . فمنذ ما يزيد عن ثلاث سنوات ، قدمت بحثاً جامعياً بعنوان « النزعة الطبيعية عند نيتشه » عرضت فيه فلسفته عرضاً حاولت أن يكون موضوعياً إلى أبعد حد . واليوم ، حين أعود بذاكرتى إلى هذا البحث ، أتساءل : كيف أمكننى أن أواغق نيتشه على آرائه هذه ؟ ذلك لأن صوت نيتشه ، الذى بدا لى فى ذلك الحين معبراً عن موقف الإنسان فى عصرنا الحالى تعبيراً أميناً ، أصبح اليوم يبدو لى بعيداً عن هذا الموقف كل البعد . أصبح مجرد صدى خافت ، لا يلبث أن يتلاشى رنينه فى موجات الزمان . وأخذت أفكر فى هذا التغير الذى طرأ على نظرتى إلى نيتشه : فهل يعقل أن يناقض الإنسان نفسه فى مثل هذه الفترة القصيرة إلى هذا الحد ؟ ولكننى سرعان ما اهتديت إلى التبرير ، ولم يكن ذلك تبريراً لموقفى من نيتشه ، بقدر ما كان تبريراً لموقف نيتشه من عالمنا الحاضر .

فما الذى نأخذه اليوم على نيتشه ؟ إننا نأخذ عليه ، قبل كل شىء ، نزعته إلى اللامعقول . وإلى الفردية المفرطة . والأمران مرتبطان : ذلك لأن العقل هو أساس اتفاق الناس وتوحيد اتجاهاتهم ، وما إن تستقر عقولنا على فكرة معينة ، حتى تقف كلها من الفكرة موقفاً واحداً . أما المشاعر والانفعالات ، فهى بطبيعتها فردية ، تتباين من شخص إلى آخر ، وعلى ذلك فهى أساس للتفرق والتميز . وهكذا نجد الفلسفات العقلية تصطبغ على الدوام بصبغة العمومية ، بينما تصطبغ الفلسفات اللاعقلية ، أعنى المبنية على المشاعر فى مقابل العقل ، بصبغة فردية . وبالمثل ، فمن المحال أن نجد فيلسوفاً ينادى بالفردية المطلقة ، ويكون ذا اتجاه عقلى ، بينما تغلب النزعة العقلية على من يضعون للإنسانية مثلا عامة

مشتركة . فوقع كلمات نيتشه يبدو اليوم غريباً على آذاننا لأن نغمته الأساسية هى التى تدعو إلى اللامعقول ، وإلى الفرد المطلق . ومع ذلك ، فقد حاولت من قبل أن أستخلص من فيلسوف اللامعقولية هذا نوعاً من المذهب المترابط ، المتماسك الأطراف ، وأن أكشف الخيط الجامع بين شعاب فلسفته المتفرقة . وعلى هذا النحو تبينت أننى لم أكن متناقضاً مع نفسى : فقد التزمت جانب المعقول على الدوام ، حتى فى بحثى لأعنف الفلاسفة نقداً للعقل .

ولكن ، هل ينبغى علينا أن نتخذ من نيتشه موقفاً كهذا على الدوام ، أعنى أن نستخلص من فلسفته العناصر المشتركة الموحدة الهدف ، ونغفل العناصر الأخرى ، المتنافرة المتضاربة ؟ الواقع أن لهذا التنافر والتضارب ذاته مغزاه العميق . والمهمة الكبرى بالنسبة إلى دارس نيتشه فى عصرنا الحالى ليست هى أن يتساءل : هل كان نيتشه فيلسوفاً عقلياً ، فردياً ، متناقضاً مع نفسه ؟ وإنما أن يتساءل : « لمَ » كان نيتشه فيلسوفاً لا عقلياً ، فردياً ، متناقضاً مع نفسه ؟ فإذا توصلنا إلى مثل هذا التعليل ، فعندئذ تكون المشكلة كلها قد حلت .

والحق أن الحملة على العقل كانت فى وقت ما مظهراً من مظاهر التحرر الفكرى ، بل من مظاهر تكريس الفكر من أجل التقدم بالإنسانية . ذلك لأن العقل كان فى ذلك الحين مبدأ مضاداً للحياة ، يحمل على الطبيعة الإنسانية ، ويحارب الواقع ويدعو إلى الهروب منه . كان ذلك فى الوقت الذى ظُن فيه أن للعقل مبادئه الثابتة التى ينبغى أن يخضع لها الواقع ، بحيث إنه لو ظهر بينهما تعارض كانت مبادئ العقل هى الصحيحة دائماً ، وكان علينا أن نفسر الواقع تبعاً لما تقضى به هذه المبادئ . فى تلك الفترة الكلاسيكية كان يُنظر إلى العقل إذن على أنه ملكة رفيعة ذات محتوى فطرى ، مصدره إلهى مباشر ، فهو ليس قوة تيسر للمرء سبيل السلوك فى هذه الحياة ، بل هو قوة تعلو على هذه الحياة وترفع عنها وترسم لها خطتها مقدماً . وهكذا أدرك المفكرون الأحرار ، فى وقت من الأوقات ، أن العقل قوة مضادة للطبيعة ، تعوق الإنسان عن ممارسة ملكاته وإطلاق قواه فى هذا العالم ، وتربطه بعالم آخر فيه من الجمود ، والأزلية ،

والثبات ، ما لا تطيقه طبيعة البشر ، ولا يعرفه الواقع الإنسانى ؛ ومن هنا كانت حملتهم على العقل ، ودعوتهم إلى اللامعقول .

فمثل هذه الدعوة إلى اللامعقول كانت إذن ، فى الوقت الذى ظهرت فيه ، دعوة حرة ترمى إلى أهداف إنسانية خالصة . وموقفنا بإزاء مثل هذه الدعوات لا ينبغى أن يبنى على تلك الثنائية القاطعة ، التى تؤكد أن الدعوة إلى العقل خير وإلى اللامعقول شر . فمثل هذا التقويم المطلق يغفل الظروف الخاصة التى مر بها الفكر الإنسانى فى مختلف عصوره ، ويتجاهل أن دلالة الاتجاه إلى العقل قد تغيرت ، ويحكم على التاريخ من خلال منظورنا الحالى وحده . وهكذا يكشف لنا مثل هذا التحليل أن النزعات الرومانتيكية فى مظاهرها المختلفة — ومن ضمنها تفكير نيتشه فى اتجاهه إلى اللامعقول — قد أدت إلى البشرية ، بالنسبة إلى عصرها ، خدمات جليلة ، وساهمت مساهمة كبرى فى السير بها إلى الأمام ، إذ ساعدت على تقويض صرح العقل بمعناه القديم ، معنى الأزلية والثبات الأبدى ، والعلو على الواقع والحياة .

على أنه إذا كان من الخطأ أن نحمل على هذه النزعات من خلال حكم عام مستمد من ظروف عصرنا نحن ، فليس أقل من ذلك خطأ أن نتحمس لها حتى نعممها على عصرنا ذاته . فإذا قلنا إن الاتجاه إلى اللامعقول كان فى وقت من الأوقات اتجاهاً إنسانياً سليما ، فليس معنى ذلك أن هذا الحكم ينسحب عليه فى عصرنا الحالى . ذلك لأن الحملة على العقل بمعناه القديم قد أدت إلى نتيجة كبرى ، هى إعطاء معنى جديد له ، بحيث لم يعد قوة مضادة للطبيعة أو عالية على الواقع ، وإنما أصبح هو ذاته تعبيراً عن الإيقاع المنتظم للطبيعة وللواقع : فهو قوة تخدم الحياة وتنظمها ، وليس قوة مترفعة تُفرض عليها من مصدر عال . وإنى لأذهب إلى أن الاتجاهات الرئيسية فى العلم والفكر الحديث ، إنما كانت ، فى صورتها الأخيرة ، تدعيماً لهذا المعنى الجديد للعقل .

وحين يصبح للعقل مثل هذا المعنى ، وحين يغدو وسيلة تعين على تقدم الإنسان لا عائقاً يقف فى وجه هذا التقدم ، فعندئذ لا يعود ثمة مبرر للحملة

على العقل وللعودة إلى مبدأ اللامعقول مرة أخرى ، بل تغدو مثل هذه الحملة مظهراً من مظاهر التأخر الفكرى فحسب .

وفى ضوء هذا التحليل ينبغى أن يكون موقفنا من تفكير نيتشه : فعلينا أن ندرك أن نزعته اللاعقلية كانت تبدو ضرورية بالنسبة إلى عصره ، وإلى الفهم السائد فيه ، وقبله ، للعقل ؛ أما بالنسبة إلى عصرنا الحالى ، فلابد أن نقابل مثل هذه الحملة بالنقد .

ومثل هذا يمكن أن يقال على نزعة نيتشه إلى الفردية : ففى عصو والتحول الكبرى — ولا جدال فى أن القرن التاسع عشر كان من هذه العصور — تضيق النفوس الحرة بالمثل السائدة ، ولكنها لا تدرى إلى أين تسير ، فلا تجد أمامها إلا الترفع والانعزال والدعوة إلى الفردية . فالاتجاه الفردى ، وتمجيد الأرستقراطية والترفع ، ليس إلا تعبيراً عن هذا الضيق بالأحوال السائدة . ولا شك فى أن هذا التعبير سلبى تماماً ، فضلا عن أن نيتشه قد بالغ فيه كل المبالغة ، ومع ذلك فدلالته الحقيقية هى السخط على كل ما هو شائع ، والهرب من الأوضاع الباطلة ، والاعتصام فى قلاع الفردية والأرستقراطية . وقد يكون لمثل هذا الحل ما يبرره فى فترة معينة ، ولكن تعميمه على كل الفترات والعصور ، والاعتقاد بأنه سيظل هو الحل الأمثل لمشكلة الإنسان الفكرية ، يعنى أننا قد حكمنا على الإنسان بالسلبية إلى الأبد .

ولنستخلص النتيجة الضرورية لكل هذه المقدمات : فنيتشه قد سار فى الاتجاه إلى اللامعقول ، وإلى الفردية ، لأن عصره كان يقتضى منه ذلك . وإذن فنيتشه هو ابن العصر ، مهما قال عنه أصحاب النزعات الأدبية والشعرية فى التفكير ، ومهما وصفه كهنة الفلسفة ، مثل كارل ياسبرز K. Jaspers ، بأوصاف الاستثناء المطلق . وإذا كنا نحس فى كل صفحة مما كتبه بنفوره من عصره ، وبعده عن ظروف الجماعة التى تعيش حوله ، وبحثه عن مثله العليا فى عصور ماضية بعيدة ، فما ذلك إلا لأن الصورة المنفرة التى رسمها عصره فى أذهان مفكريه قد أرغمته على أن يهرب منه ، ويحلق بتفكيره بعيداً عنه .

وأخيراً ، فقد قلت فى مستهل هذه المقدمة إن قصتى مع نيتشه هى قصة الكثيرين . واست أشك فى أن المرء ، إذا بدأ حياته العقلية بداية سليمة ، سيشعر حتما بحاجته إلى مفكر ثائر على الأفكار والمثل السائدة ، يدعو إلى تحطيمها بقسوة وعنف ، ولا يعرف فى ذلك توفيقاً أو مهادنة — وعندئذ لن يجد المرء خيراً من نيتشه فى ثورته ، ولن يجد عوناً له خيراً من مطرقته التى هدم بها أصنام العصر . غير أن فترة الثورة هذه تعقبها — فى كل تطور طبيعى سليم — فترة البناء الإنسانى الهادئ . وعندئذ لن يجد المرء فى نيتشه مرشداً له ، إذ أن قدرته كلها تنحصر فى حملاته ذات النتيجة السلبية وحدها . فإذا سار تطورنا الفكرى فى طريقه الصحيح ، فلا جدال فى أننا لن نقنع بما قال به نيتشه طويلا ، وسنبحث عن مثل إيجابية أخرى لا يرشدنا تفكيره إليها ، ومع ذلك سنظل نذكر له دائماً صيحة الاحتجاج الأولى التى لابد أن يبدأ بها كل تطور عقلى سليم .

فؤاد زكريا